

أدب الثورة الجزائرية:
أطروحة في المنهج و مقاربة في المحتوى

د . كبريت علي
كلية اللغات والاداب
- جامعة ابن خلدون - تيارت

الملخص

أدب الثورة الجزائرية معطى مهم وعظيم عظمة الثورة التحريرية إذ المحتوى الفني والموضوعاتي يحتمان على الباحث أن يقاربهما مقارنة خاصة ترصد الأبعاد النهضوية والفكرية والإيديولوجية لها، كما يحيل هذا الموضوع إلى خصوصية منهج هذه المقاربة الخاصة، فكلا من المحتوى والمنهج يستلهمان خصوصيتهما من خصوصية وتميز الثورة التحريرية الجزائرية التي هي أعظم ثورة شعبية مسلحة ضد الاستعمار في العصر الحديث.

الكلمات المفتاحية: أدب الثورة - الثورة التحريرية الجزائرية - الاستعمار الفرنسي

Résumé :

La littérature révolutionnaire algérienne est d'une importance à l'égal de la révolution algérienne. Le contenu esthétique et thématique exige de la part du chercheur d'adopter une approche spécifique multidimensionnelle portant à la fois sur la pensée, l'idéologie et le progrès. A noter qu'il s'agit de la littérature de la plus grande révolution populaire armée contre le colonialisme de notre époque.

Mots clefs : approche multidimensionnelle, colonialisme, littérature révolutionnaire, Révolution algérienne.

مفهوم أدب الثورة:

الأدب الثوري هو الذي يحتوي تلك المضامين التي تخللت نصوصه، ومنها القصائد الشعرية الجزائرية - ونقصد الشعر الفصيح و الشعر الملحون معا، إذ الشعر الملحون تعبير عن ضمير الشعب ذلك أنه عندما عزت عليه الفصحى صاغ مواقف بلهجته العامية شعرا و بأشكال أخرى من أنواع التعبير في الأدب الشعبي - حيث تبنت تلك المضامين مواقف تتاهض الوجود الاستعماري في أرض الجزائر فانتقدته وتمردت على قيوده وراحت تؤسس لقواعد النضال والانتفاضة والمقاومة، على أنها كانت تمجد دائما قيم الحرية وأمل الانتصار على المشروع الاستعماري الذي كانت نواته " الجزائر فرنسية" (l'Algérie française) حيث كانت جذوة هذا الأدب - بجناحيه : الفصيح و الملحون - توقد في النفوس روح التمرد وطموح الثورة، أي كانت مشروعا للثورة المسلحة التي عرفتها الجزائر في أول نوفمبر (1954) حيث أدت إلى الاستقلال. فلقد صقلت النفوس وهيأتها إلى قيم التضحية والجهاد ضد الاستعمار ، كما رسخت هذه المعاني حتى بعد نيل الاستقلال، إذ أصبحت الجزائر قلعة الثوار أو بتعبير آخر قطب "الإيديولوجية الثورية" ضد مشاريع الاستعمار كلها في العالم المستعمر في القارتين الإفريقية والآسيوية.

وبناء على هذه المسلمات يطرح السؤالان الآتيان:

- 1 - بأي منهج نتناول أدب الثورة؟
 - 2 - ما طبيعة المشروع النهضوي في محتوى أدب الثورة الجزائرية؟ وما دعائمه؟
- أدب الثورة بأي منهج؟ :

إن المنهج يعكس الرؤيا والوعي الذي تتجلى من خلاله المنطلقات والإجراءات والأهداف، فهو يقوم على نظرية خلفه تسنده ويستلهم منها برنامج عمله.

"يقول بودين وآخرون في " الموسوعة الفلسفية المختصرة": " في أساس كل مناهج المعرفة تكمن القوانين الموضوعية للواقع، وهذا هو السبب في أن المنهج يرتبط ارتباطا لا ينفصم بالنظرية"⁽¹⁾ ويضيف د. زواوي بغورة" إن النظرية تعبير عن الحقيقية، والمنهج هو الممارسة الإنسانية الهادفة"⁽²⁾

وإذن فإن أدب الثورة -على عظمتة - يستحق أن يدرس بمناهج تحدد مكانة وأهمية وأبعاد الثورة الجزائرية من حيث منطلقاتها وأهدافها، إذ واكب هذه العظمة أدب عظيم كان في مستوى عظمة وأهمية وأبعاد هذه الثورة التي تبنته وتبناها. وبالتالي فإننا ننبه إلى أن تناول هذا الأدب بالتحقيق والتحليل و الدراسة يجب أن يكون بمناهج في مستوى هذا الأدب وإلا تحولت الجهود إلى مجرد حماسيات انطباعية .

إذن، فضرورة المنهج وضرورة النظرية للممارسة النقدية في دراسة أدب الثورة تملية اعتبارات متعلقة بطبيعة الثورة الجزائرية إذ اعتبرت ثورة القرن (القرن العشرين). ويزيد في تأكيد المطلب المنهجي -أهمية وضرورة - اتكاء الأدب على منظور منهجي تؤسس النظرية؛ هذه النظرية التي تستلهم مقوماتها وعناصرها من طبيعة الثورة.

يقول الناقد صلاح فضل: « فالمفهوم المنهجي المؤسس للأدب هو النظرية ، والمنهج النقدي هو الذي يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها ويمارس فاعليته، ويتم تداوله عبر جهاز اصطلاحي يحمل قنوات تصورات، ويضمن كيفية انطباقها -قريبا أو بعدا - مع الواقع الإبداعي. والمنظومة الاصطلاحية تمثل الطرف الثالث في العملية المنهجية. فعندنا - إذن - النظرية والمنهج والمنظومة الاصطلاحية، والأخيرة تمثل الأدوات التي يطبق بها المنهج، وهي خاضعة للتغير من منهج إلى آخر. وتلعب المصطلحات الخاصة بكل مجال دورا أساسيا في التمييز بين اختصاصات المناهج⁽³⁾.

وها هنا إضافة مهمة تتعلق بما أسماه الدكتور صلاح فضل بـ "الجهاز الاصطلاحي" إذ يتم إبداعه وانتظامه من خلال معجزات ثورتنا الخالدة!! أو لم تكن الثورة إحدى خوارق الشعب الجزائري مع أخطر وأطول استعمار حديث كاد ينسي الأمة الجزائرية هويتها

وتاريخها حتى يئسنا ويئس إخواننا العرب من استقلالنا مثلما نحن يئسون اليوم من عودة الأندلس إلى خارطة العرب والمسلمين؟! إن هذه الاعتبارات كلها وغيرها كانت متضمنة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في أدب الثورة، فلزم ذلك مواكبة المناهج لهذه الأبعاد من حيث جهازها الاصطلاحي الذي يعكس قاموس الثورات العظمى في التاريخ كما يفرض منظومة اصطلاحية أثناء الدراسة والتحليل في مستوى عظمة أدب هذه الثورة.

إن الأساليب المعهودة - في أغلبها - في تناول أدب الثورة كانت تقصر في حق الأبعاد التي تحيل إليها الثورة وأدبها والمتمثلة في جعلها (إيديولوجية!) لكل الأحرار في العالم سواء في بعدها النضالي أو في العمل المسلح باعتبارها مرجعا تاريخيا أو قلعة من قلاع المقاومة والتحرر في أبعادها العالمية والإنسانية.

وحديثنا عن المنهج ليس بالتصور الذي نعرفه في مناهج النقد الأدبي وإنما المنهج بما هو وسيلة اكتشاف وإنتاج للمعرفة الثورية تنظيرا وتطبيقا كما سارت عليه الحركة الوطنية قبل الثورة، ثم وصولا إلى الثورة في ماهيتها وانجازاتها المتعددة والمتنوعة، وصولا إلى اشعائها الفكري والمنهج التنويري على بقية شعوب العالم المستعمرة ولن يتم تبين ذلك إلا إذا استرجعنا السياق التاريخي الذي نشأت فيه وتكونت، ثم كيف انفجرت فجر الفاتح من نوفمبر

1954 و أخيرا كيف حققت انتصاراتها التي توجت بالاستقلال سنة 1962 .

وربما أقرب وضع يمكن تصوره نحو واقع الجزائر أيام الاستعمار هو أنها كانت يَوْمَذاكَ في حال الميؤوس من استقلاله بالنظر إلى طول مدة جنوم هذا الاستعمار على أرض الوطن؛ إذ دامت حوالي قرن و ثلاثين عاما، كما أن حالة المجتمع المتردية من تخلف وأمية وجهل، تجعل من المتأمل لحال الجزائر في ذلك الأوان يكاد يقتنع بأن أي ثورة ضد الاستعمار - في هذه الأوضاع المتردية - هي من قبيل الانتحار أو المعجزة التي لا تضاهيها إلا معجزات الأنبياء !

وفعلا، فلقد أثارت رعب المستعمر و إعجاب كل أحرار ودول العالم، إذ جعلتهم يراجعون كل مسلماتهم في علوم السياسة وتاريخ الثورات والحروب !!.

وبناء على هذا التصور احتاج هذا الأدب إلى رؤية واعية ومشروع هادف في دراسته، نقترح أن يقوم على ثلاث دعائم:

1 -التأسيس الوثائقي لأدب الثورة: الجمع والتصنيف والنشر.

2 -أدب الثورة أدبان:

أ -أدب النضال: ينظر في موضوعه مرحلة النضال

السياسي بعد مرحلة المقاومة الشعبية وقبل قيام الثورة ،

ولاينبغي أن نهمل الأدب الشعبي ، وخاصة منه الشعر الملحون ، فهو جزء من أدب الجزائر حيث ساهم أكثر من الأدب الفصيح - في بعض المراحل - في مواكبة الأحداث و الوقائع المهمة و كان له تأثيره و فعاليته التواصلية والتأثيرية بين الغالبية العظمى من الطبقات الشعبية التي كانت تحسن تداوله و تذوقه و من أمثلة ذلك شاعر الأمير عبد القادر الشيخ الطاهر بن حوى و شاعر الشيخ بوعمامة محمد بلخير- رحمهم الله تعالى جميعا -.

ب -أدب المقاومة المسلحة: ويمثل مرحلة الثورة

التحريرية ابتداء من الفاتح نوفمبر 1954 إلى الإستقلال .

3 - الثورة الجزائرية هي أيديولوجيا الأحرار في العالم ، ويتم تناولها من حيث تأثر أحرار العالم بها و كيف انتقلت إلى البلدان المستعمرة وخاصة الإفريقية منها ؟

إذن فالأدب الجزائري قد تميز بأبعاده فنية وجمالية وموضوعية وأيديولوجية؛من حيث الكم والكيف، وخاصة الإبداع الفني الذي واكب ثورة الفاتح من نوفمبر (1954) ، إذ ما أغناه في أبعاده ! فهو وثائق تاريخية وذخيرة فنية، وأنموذج أيديولوجيا وملحمة إنسانية... !!

وإن هذا الطرح المتعلق بإشكالية قراءة أدب الثورة يسمح لنا

بفتح وعينا الكامل ب:

1 - القيمة الحقيقية لثورتنا التي بقيت مضمرة في تفاصيل تاريخها المجيد .

2 - التقدير الفني والأدبي النقديين لأدب هذه الثورة ؛
فعظمة هذا الأدب في الحقيقة هي من عظمة ثورتنا. ويمكن أن نتبين هذه الفكرة من خلال مثال يتضمنه السؤال التالي: أين كان سيكون شعر مفدي زكريا لولا المضمون الثوري فيه؟ هل كان سيُحْتَفَى به مثلما نرى اليوم ؟

3 - اكتشاف فاعليات الفن الأدبي في إذكاء وترسيخ الروح الثورية لدى أفراد الشعب الجزائري، كما أن هذه الفعالية كانت وجدانية سمحت للأفراد بالتفاعل الروحي مع الثورة من حيث هي مقاومة ومشروع لدولة تصارع الفناء، وقضية هي مسألة وجود أو لا وجود !.

4 - أدب الثورة هو نضج فني لأدب قام تحت ركام عقود من الجمود والتخلف رسم ملامح شخصية جزائرية عربية - أمازيغية إسلامية ذات طبيعة ثورية دائما، يذكىها روح الإباء وطموح الشموخ والثقة بالنصر.

سأتناول أنموذجا هنا يؤكد ما طرحناه من أفكار منهجية في الشعر الجزائري الفصيح ألا وهو شعر مفدي زكريا إذ تضمن قيما ثورية وفنية تمثلت في ما صقله فيه الاستعمار - بكل ما يعنيه من بطش واضطهاد وظلم للشعب الجزائري - من تجربة في النضال

والوعي بمشكلات الجزائر والأمة العربية الإسلامية بحيث أنضجت مواقفه ومفاهيمه تجاه أوضاع سياسية وثقافية واجتماعية مزرية؛ كان الاستعمار يثبتها ويرسخها بحنق ماهر وبتخطيط واع لأهداف مشاريعه التي لا يختلف فتكها عن فتك أسلحة الدمار الشامل لكل مقومات الوجود للأمة الجزائرية .

وبناء على ذلك كانت هذه المواقف والرؤى تفرض على المتأمل في ديوان مفدي زكريا التوقف عندها مليا وتأملها لاستكناه الأبعاد البطولية المتضمنة في شعره إذ ارتبط شعره بالثورة ارتباط الروح بالجسد ! فلقد كان يغذيها بروح البطولة ويدفعها بالأنشيد الحماسية ويسقيها بدم الشجاعة ويكتبها بدموع الأمل... في صور فنية رائعة، وإيقاعات شعرية مزلزلة تخترق الروح في أعماقها قبل الأذان فتستحيل طاقة إيمانية دفاقة رسم من خلالها مجاهدوا الثورة أروع مشهد بطولي في التاريخ الحديث !

لهذا كله كانت قصائد مفدي زكريا غنية بالدلالات، والأبعاد الثورية حيث لا زالت لم تُستنفذ كنوزها، إذ بقيت خالدة، ليس من حيث كونها وثيقة تاريخية فحسب ، ولكنها خلدت أيضا تلك الأبعاد الإيديولوجية والقيم الثورية التي يستحيل حصرها في البعد الوطني فقط، ولا حتى في البعد العربي الإسلامي، بل في أبعاد إنسانية أوسع و أعظم من خلال حق تقرير المصير و المقاومة ضد الاستعمار التي كفلتها قوانين الأمم المتحدة لشعوب العالم .

وفي هذا السياق ننبه إلى أن قيم الثورة وترسيخها وتقديسها يكون انطلاقا من قداسة أرواح الشهداء ودمائهم، إذ كم يعزّ علينا شهداؤنا، كما أن ذكراهم تبعث في أفئدتها حسرة على أنهم لم يذوقوا طعم الانتصار الذي نتمتع فيه اليوم في عزة وكبرياء وشموخ.

وحق للأدب أن يواكب هذا المشروع مستلهما مقوماته مما حققه ورسخه جيش التحرير في ثورته ضد الاستعمار إذ وحد قلوب الجزائريين وطموحهم نحو الاستقلال وبناء جزائر الغد بعدما كانوا أحزابا فرقت بينهم مشاريع النضال على اختلاف مشاربها فجمعتهم يوم الفاتح من نوفمبر على خط واحد ووضعت أصابع الثوار على زناد واحد فحققوا النصر بفضل مشروع المصالحة بينهم، ولهذا فمشروع المصالحة هو مشروع المستقبل الذي لا بديل له للجزائريين اليوم. وها هنا حضور الثورة الجزائرية من حيث قيمها ومشاريعها الطموحة لأجل جزائر أفضل وأقوى.

يقول أبو تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بناء العلا كيف تؤتى المكارم

فإذا كان هذا حال الشعر عموما في بناء العلا، فإن شعر الثورة أوكد في هذا الباب إذ صنع في المجاهدين الثوار قوة العزيمة وشدة الحماسة وروح الأمل في الانتصار، ومن النماذج التي جسدت

حقيقة هذه الفعالية ما قاله مفدي زكريا في حق روح الشهيد -
وقود الثورة المباركة وحصنها المنيع - :
كن سفيرا حيثما شئت تجد في السما أو في الثرى أنصارنا
وابن في عليك للشعب كما كنت تبني منذ حين ها هنا
وارو للأفلاك عنا قصة كنت من أبطالها في حربنا
واحك عن ثورة شعب مارد عبقرى يتحدى الزمنا⁽⁴⁾

إنه خطاب لأرواح الشهداء في (الأفلاك) إذ الشهداء أموات
بالقياس الحسي المادّي لكنهم خالدون بالقياس الروحي يسمعون
ويشاهدون ويعقلون ويحسون ويتذوقون.... ! هكذا تصورهم مفدي
زكريا فخطبهم على أنهم يسمعون حديثه ويشاهدونه يتكلم و
يعقلون كلامه ويفهمونه ويحسونه ويتذوقون نشوة القص والحكي
فيحكون قصة حرب الجزائر ضد الظلم والطغيان الاستعماريين،
حتى لأنهم أنصار في السماء كما أنّ للجزائر أنصار في الأرض.
والمستفاد من قوله هو أن الشهداء رموز خالدة يجب أن تبقى
كذلك في ضمائرنا، فهم وقود معركتنا -مهما كان نوعها - في
هذه الحياة، كما أنهم عبرة وشاهد ودافع إلى كل عمل بناء يتعلق
بمصلحة الوطن ابتداء من مرحلة التحرير وصولا إلى مرحلة البناء
والتشييد.

وفي نفس المعنى خاطب الشهيد العظيم " أحمد زيانا " قائلا:

يا زيانا أبلغ رفاقك عنا في السماوات قد حفظها العهودا

وارو عن ثورة الجزائر للألف لالك الكائنات ذكرا مجيدا⁽⁵⁾
 إنه خطاب روحي من روح عاشقة تعشق الوطن حتى الفناء،
 إلى روح أخلصت عشقها لهذا الوطن فهي خالدة في السماء.
 إن أمرا يصل إلى مستوى الخطاب الروحي لا يمكن فهمه إلا
 بجعله في مستوى المقدس أي أن ترتفع المشاعر والأفهام في وعيها إلى
 قمة تلك القيم التي يتحدث عنها الشاعر.
 ولقد تجلى صدق الشاعر وإخلاصه في تلك النبذة الانفعالية
 وهو يتحدث عن عشقه وهيامه بالجزائر ، وهي إشارة إلى أنموذج
 الروح التي كانت تبعد الأدب والشعر، إذ بمثلها استطاع الأدب أن
 يكون وقود ثورتنا العظيمة يقول:

الحب أرقني واليأس أضفاني والبين ضاعف آلامي وأحزاني
 والروح في حب "ليلاي" استحال إلى دمع فأمطر شعري ووجداني
 أساهر النجم والأكوان هامة تصغي أنيني بأشواق وتحنان
 رفقا بلادي فأنت الكون أجمعه لولاك كنت بلادي هالكا فإني
 لك الرقاب وما في الكون من نفس مُدي يمين الوفا يا عين إنسان
 إن الشاعر يبدو في قمة وجدته لبلاده، فلقد أخذت من نفسه
 ما تأخذه المرأة من نفس العاشق حين تأخذ عقله وقلبه.

كم هي حاجتنا إلى مثل هذا الوجدان في زمننا ، بينما
 كانت الجزائر في قلوب من سبقونا تستحق التضحية بالنفس
 والنفيس؛ فلقد ضحى الشهداء بكل ما يملكون، حتى أنهم جادوا

بأنفسهم - وهي أثنى ما يملكون - لأجل أن تحيا الجزائر مستقلة
عزيزة مكرمة، حيث تستمر في الاجيال اللاحقة تلك الحرارة وتلك
الحماسة الثورية التي تحرق الأكباد غيرة على قيم الامة وتؤجج
فيهم النخوة والتضحية من أجل (الوطن).

إنّ الشهداء - حتى وهم في منتصف الطريق إلى النصر أي في
قمة وهج الثورة - كانوا على ثقة بالنصر، وكانوا يستلهمون
القيم المعنوية بتلقيها تلقيا مباشرا من معلمهم ووعاضهم
ومحرضيهم من الشعراء - شعراء الملحون والفصيح - الذين
كانوا يرفعون من معنوياتهم ويبعثون فيهم الوعي بعدالة قضيتهم
التي من أجلها يجاهدون ومن أجلها يموتون، حتى لأنهم قد استحقوا
من مفدي زكريا نشيدا سمي (بنشيد الشهداء) و الذي مطلعته:

أعصفي يا رياح واقصفي يا رعود

أثخني يا جراح واصدقي يا قيود

نحن قوم أباة

ليس فينا جبان

قد سئمنا الحياة

في الشقا والهوان

لا نمل الكفاح لا نمل الجهاد

في سبيل البلاد⁽⁶⁾

والمتمرس على الأناشيد الوطنية - أدركنا هذا أثناء أداء واجب الخدمة الوطنية - يعلم سحرها وسرها في التأثير على النفوس من حيث قدرتها على بعث الحماسة والثبات على الموقف، والتشجيع على الصمود والوفاء للمبدأ والبقاء على العهد .

وربما كانت موسيقى و ألحان تلك الأناشيد الوطنية ، التي كلما سمعناها حرّكت فينا مشاعر الحماس ونشوة الانتصار وروعة الذكرى في كفاحنا التحرري مع الاستعمار الفرنسي ، تمثل أبرز إبداعات الموسيقى الجزائرية الحديثة .

إن القيمة العليا للشهيد هي أن نجعله (معلما) للهداية والذكرى : الهداية إلى الإخلاص لهذا الوطن ولمصالحه ، بينما الذكرى تبقى دائما كالرقيب على الضمير حتى لا تنسى أمانة الشهداء التي خلفوها للخلف الذي تمنوه صالحا كفؤا مقتدرا على أمانة هي بحجم (دولة الجزائر) العظيمة كما حلموا بها ولم يروها !!

وأخيرا فإن هذه النماذج والمداخل الموضوعية التي كانت أنموذجنا في اقتراحنا المنهجي وفي مقارنة المحتوى هي التي يجب أن يتبناها مشروع " أدب الثورة " حتى نحافظ على برنامج الحضاري الذي خطته الثورة طوال كفاحها مع الاستعمار ليتواصل هذا الكفاح في سبيل تأهيل المجتمع الجزائري إلى مصاف الأمم المتحضرة كما كانت أيام عزها وشموخها في الأعصر السابقة ،

إذ كان عظماء ثورتنا يحلمون بجزائر عظيمة عظمة الثورة
التحريرية المباركة!! ...

قائمة المصادر والمراجع

- 1 - عن زاوي بغورة: المنهج البنيوي. الجزائر. دار الهدى. ط:1. 2001
- 2 - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر - المغرب - إفريقيا الشرق - د. ط - 2002.
- 3 - مفدي زكريا: اللهب المقدس، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ط، 1983.

الهوامش:

- 1 - عن زاوي بغورة: المنهج البنيوي. الجزائر. دار الهدى. ط:1. 2001. ص:109.
- 2 - نفسه: ص: 110.
- 3 - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر - المغرب - إفريقيا الشرق - د. ط - 2002 - ص11 - 12.
- 4 - مفدي زكريا: اللهب المقدس، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د. ط، 1983، ص: 193.
- 5 - نفسه: ص: 11.
- 6 - المصدر نفسه: ص: 84.